معالم الحياة السياسية للإمام موسى الكاظم (ع)

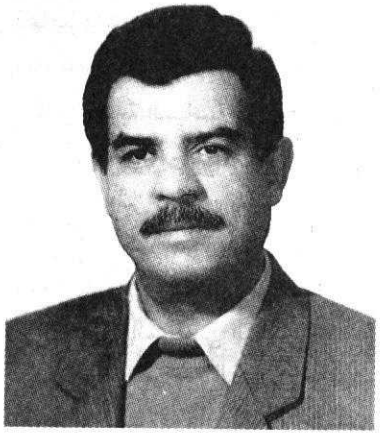

بقلم : عبد الحليم الرهيمي*
(المملكة المتحدة)

(*) بطاقة :
ـ عبد الحليم الحاج أحمد الرهيمي .
ـ مواليد الحلة ١٩٤٣ .
ـ أنهى دراسته الابتدائية والمتوسطة في مدارس الحلة .
ـ ترك دراسة الهندسة في مصر ودمشق لأسباب سياسية .
ـ حصل على إجازة في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية .
ـ حصل على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية ١٩٨٢ .
ـ غادر العراق مضطراً (لأسباب سياسية) منذ عام ١٩٦٧ وأقام حتى ١٩٩٠ ما بين دمشق وبيروت .
ـ انتقل من دمشق ليقيم في بريطانيا منذ عام ١٩٩٠ .

مؤلفاته :
ـ موجز تاريخ العراق (كتب بإسم حليم أحمد لأسباب أمنية) ـ صدر عن دار ابن خلدون ١٩٧٨ .
ـ تاريخ الحركة الإسلامية في العراق (١٩٠٠ـ١٩٢٤) ـ الطبعة الأولى لدار العالمية بيروت/ ١٩٨٤ ـ الطبعة الثانية دار النبوغ بيروت/ ١٩٨٥ .
ـ له عدة مساهمات منشورة في المجلات العربية والصحف العربية التالية :
ـ مجلة «منبر الحوار» تصدر في بيروت ـ لبنان .
ـ مجلة «شؤون فلسطينية» تصدر عن مركز الأبحاث الفلسطينية في بيروت .
ـ كتب في الصحف التالية : «البيان» الإماراتية ـ «السفير» اللبنانية ـ «الحياة» الصادرة في لندن ـ «صوت الكويت» التي صدرت في لندن ـ «البديل الإسلامي» صدرت في بيروت ـ «العراق الحر» تصدر في لندن .
ـ يكتب الآن مقالاً أسبوعياً لجريدة «القبس» الكويتية .

معالم الحياة السياسية للإمام موسى الكاظم (ع) وجهاده

المقدمة:

تمثل تجربة الحياة السياسية للإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) وجهاده لتأدية دوره الرسالي في قيادة الأمة الإسلامية ومواجهة حكومات الجور والاستبداد اللاشرعية المعاصرة له، احدى التجارب السياسية الزاخرة بالقيم والدلالات للأئمة المعصومين (ع) التي انطوت كل منها على سمات وخصائص مميزة املتها طبيعة الظروف والتبدلات السياسية والفكرية والاجتماعية التي عاصرها أو عاش خلالها كل إمام، ابان فترة ولايته، فوسعت بذلك أشكال قيادته وجهاده وتجربته بميسمها.

إن التجربة السياسية في حياة الإمام الكاظم (ع) هي جزء لا يتجزأ من أمامته وحياته العامة (الدينية والسياسية) والتي لايمكن فصلها قسرياً بأي حال، عن جوانبها الاخرى، إلا إذا سلمنا بالمبدأ الخاطىء الذي يفصل اعتباطاً، الدين عن السياسة، وهذا يعني أن حياة الإمام الكاظم (ع)، وكما حياة الأئمة الآخرين، تنتظم في وحدة عضوية واحدة، رغم تنوع جوانبها، حيث يستنبط كل جانب في تعبيراته الخاصة، والجوانب الاخرى.

أن عقيدة المسلمين الشيعة الامامية بالامامة والإمام المعصوم وبتنوع واجباته وتعددها[١]، تؤكد على تبوء الجانب السياسي موقعاً حاسماً، في حياة الأئمة. فالإمامة، حسب اعتقادهم، هي استمرار للنبوة، وأن للإمام ما للنبي (ص) من الولاية العامة على الناس[٢] والتي تعني حكماً، أن الإمام المعصوم يؤدي بولايته دوراً دينياً ـ سياسياً في آن واحد، كما أداه النبي (ص).

لقد وصف الإمام علي بن موسى الرضا(ع) الإمامة والإمام ومنزلته بقوله: الإمام اس الإسلام النامي وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وامضاء الحدود والاحكام ومنع الثغور والاطراف[٣] وهذا يشير أيضاً بشكل جليّ، إلى الدور الديني ـ السياسي الذي يؤديه الإمام في آن واحد، منذ بداية ولايته العامة.

وفي ضوء ذلك، فإن اختيار الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) موضوعاً للدراسة، يقصد به تسليط الضوء وتركيزه، على جهاد الإمام وكفاحه، من أجل رعاية وحماية شؤون المسلمين، ومقاومة حكام الجور والإستبداد اللاشرعيين، لانتزاع موقع الولاية المغتصبة منهم، وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين، أي الإمام الكاظم (ع) ذاته.

إن دراسة تجربة الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) وإبراز معالمها وتعبيراتها الرئيسية يستلزم أولاً، إطارها العام عبر تحديد موقعها بين تجارب الائمة الأخرين، وعبر التعرف على السمات الرئيسية للعصر الذي عاش فيه الإمام، وعهدت الإمامة خلاله بالنص، إليه.

الإطار العام لتجربة الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع)

تندرج تجربة الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) في إطار التجارب السياسية للأئمة

المعصومين، والتي تتكامل كل منها مع الأخرى ضمن هدف استراتيجي واحد، حسب المصطلحات الحديثة غير أن امتلاك كل تجربة من تلك التجارب لخصائص وسمات تتميز بها وتتمايز عن التجارب الأخرى، أدت إلى وقوع الارتباك وأحياناً الخطأ، في تفسير عدد من كتاب سير الائمة، لبعض مواقف الإمام، والمبالغة في إبراز خصوصيتها وتميزها، إلى الحد الذي تبدو وفيه وكأنها متعارضة مع هدف التجارب الاخرى وتكاملها[٤].

إن السؤال الذي ينبغي أن يطرح، في ضوء ذلك، هو: بم وأين تتباين وتختلف فعلاً، تجارب الحياة السياسية للأئمة، ومن بينهما تجربة الإمام الكاظم (ع)؟ ومن ثم أين تتماهي وتتداخل وأخيراً، أين وكيف تتقاطع وتتكامل، لتصب في مجرى وهدف واحد؟ لقد عالج الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رض) هذه المسألة معالجة علمية وتاريخية دقيقة يمكن وصفها بأنها إعادة الإعتبار للفهم الصائب لعقيدة الإمام في الإمامة.

وفي معالجة لمسار دور الأئمة وحياتهم، يفترض الشهيد لدراسة ذلك الاستناد إلى نظرتين، نظرة جزئية ونظرة كلية، حيث سنواجه في النظرة الجزئية اختلافاً في الحالات وتبايناً في السلوك وتناقضاً من الناحية الشخصية بين الأدوار التي مارسها الأئمة.

أما في النظرية الثانية، فسنجد ونكتشف، كما يقول الصدر، الخصائص العامة والادوار المشتركة بالأئمة ككل، وسوف تزول كل الخلافات والتناقضات، لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام[٥].

وإستناداً إلى النظرة الكلية في دراسته لمسار دور الأئمة يقسّم الشهيد الصدر، هذا المسار إلى ثلاث مراحل، المرحلة الأولى وتبدأ بعد وفاة الرسول (ص) وتستمر إلى حياة الإمام الرابع، وفي المرحلة التي تفادى خلالها أهل البيت صدمة الانحراف ومرارتها بعد وفاة الرسول (ص) وقاموا خلالها بالتحصينات اللازمة قدر الإمكان وبكل العناصر الأساسية للرسالة ضد تلك الصدمة. والمرحلة الثانية وتبدأ شبه بداية مع الإمام الخامس محمد الباقر (ع) وتستمر إلى حياة الإمام الصادق (ع)، وهي المرحلة التي شرع فيها قادة أهل البيت ببناء الكتلة ـ الجماعة الصالحة من مجموع الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، والمنضوية تحت لوائهم، والشاعرة بكل الحدود والابعاد من المفهوم الإسلامي المتبنىٰ من قبلهم. وأما المرحلة الثالثة، فتبدأ مع ولاية الإمام السابع موسى الكاظم (ع). وهذه المرحلة، كما يقول الشهيد الصدر، لاتحدد بشكل بارز من قبل الأئمة أنفسهم بل يحددها بشكل بارز موقف الحكم المنحرف من الأئمة أنفسهم، بل ذلك لأن الجماعة التي وضعت بذرتها في المرحلة الأولى، نشأت ونمت في ظل المرحلة الثانية، هذه الجماعة غزت العالم الإسلامي الحقيقي، وهذا خلف بشكل رئيس ردود الفعل للخلفاء تجاه الأئمة (ع) من أيام الإمام الكاظم (ع)[٦].

هذا التحليل التاريخي الذي قدمه الشهيد الصدر لمسار دور الأئمة وحياتهم سيصل به إلى

استخلاص نتيجة كبيرة الأهمية تقول أن وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤوليتها وشروطها، وأن أدوار الأئمة مهما اختلف أدوارها الطارئة بسبب الظروف والملابسات فإن الأئمة يشكلوا بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الأخر ويكمله(٧).

وفي ضوء ذلك التحليل ونتيجته، نستطيع أن نمسك بالحلقة المركزية في مسار دور الأئمة وحياتهم، وأن نعني من خلال ذلك حدود التباين والإختلاف في التجربة الساسية لكل منهم وخصائصها في اطار تكامل الادوار ووحدة الهدف المشترك.

أما موقع ودور الإمام الكاظم (ع) وتجربة حياته السياسية في ذلك المسار لدور الأئمة، فانه يتحدد في كونه جزء لا يتجزأ من ذلك المسار ومكمل للادوار الاخرى للأئمة الذين سبقوه، بل وأيضاً في تميّز المرحلة التاريخية التي بدأت مع بداية عهد ولايته، عن المرحلتين التاريخيتين السابقتين اللتين تشابه خلالهما، إلى حد كبير، دور الأئمة الستة الذين تولوا الإمامة قبله. وقد اتسمت المرحلة الجديدة التي بدأت مع الإمام الكاظم (ع) بعدد من الخصائص الرئيسية المميزة التي تأتي في مقدمتها، خاصية توفر إمكانية انتزاع الحكم من الخلفاء العباسيين من جهة، وخاصية مبادرة أولئك الخلفاء من جهة ثانية ـ وبسبب خشيتهم من تحقق تلك الإمكانية ـ إلى توسع نطاق حملات القمع والإضطهاد وضد كافة المسلمين المعارضين لسلطاتهم بوجه عام، وضد المسلمين الشيعة وسائر العلويين من آل بيت الرسول، وفي مقدمتهم الإمام الكاظم ذاته، بوجه خاص.

السمات الرئيسية لأوضاع الدولة والمجتمع الإسلامي خلال عصر الكاظم (ع)

شهدت المرحلة التاريخية التي ولد وعاش فيها الإمام الكاظم (ع) أحداثاً وتبدلات سياسية وفكرية وإجتماعية عاصفة، على صعيد الدولة وأنظمة الحكم وعلى صعيد المجتمع الإسلامي، كان أهمها وأبرزها اسقاط الحكم الأموي وانتقال السلطة إلى يد العباسيين. وحيث مَّثلَ هذا الانعطاف التاريخي انقطاعاً عن الحكم الأموي ونقيضاً له على أكثر من مستوى وصعيد من جهة، فقد مثّل هذا في الوقت نفسه، تواصلاً واستمراراً لارثه وممارسته للسلطة، وهي قمعه واضطهاده للشيعة والعلويين من آل بيت الرسول (ص) من جهة ثانية، وقد اسفر ذلك الانقطاع والتواصل في آن معاً، الناجم عن قيام وانتصار الدعوة العباسية في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة، عن مواجهة المجتمع الإسلامي لفترة انتقالية قلقة وصفها أحد المؤرخين بأنها فترة أزمة ناشئة عن تطورات إجتماعية واقتصادية وفكرية تجاوزت الاوضاع القائمة وأورثت قلقاً وتخلخلاً(٨).

هكذا، وفي ذروة هذا الانعطاف التاريخي، وما نجم عنه من أزمنة وقلق وتخلخل، ولد

الإمام موسى الكاظم (ع) في السابع من شهر صفر سنة ١٢٨ هـ. حيث تزامنت هذه الولاية مع عهد آخر حاكم أموي وهو مروان بن محمد المشهور بالحمار الذي تولى السلطة سنة ١٢٧ هـ وقتل على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ. وقد عاش الإمام الكاظم في كنف أبيه الإمام الصادق (ع) حوالي عشرين سنة، تولى بعدها الإمامة خمساً وثلاثين سنة، واستشهد سنة ١٨٣ هـ. وبذلك عاصر الإمام الكاظم (ع) فضلاً عن آخر حاكم أموي، خمساً من الحكام العباسيين وهم، أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور المهدي، موسى الهادي، هارون الرشيد، وفي زمن المنصور آلت الإمامة إلى الإمام الكاظم بنص من أبيه الإمام الصادق (ع) سنة ١٤٨ هـ.

لقد اتسمت أوضاع الدول العباسية والمجتمع الإسلامي في عصر الإمام الكاظم (ع) بعدد من السمات الرئيسية المهمة، التي أثرت في طبيعة وشكل الدور الذي أداه الإمام في قيادته للمجتمع الإسلامي وتبليغ رسالة الإسلام.

ومن أبرز السمات:

١ـ التبدلات السياسية العاصفة والتغيرات المتصارعة في التوجهات السياسية للحكم العباسي، وكانت أهم التغيرات عن ذلك نجاح العباسيين في إنتزاع الحكم من أيدي الأمويين بإسم كل القوى والجماعات المعارضة لهم، ثم انقلابهم بعد ذلك على معظم هذه القوى والمجموعات، وفي مقدمتهم الشيعة والعلويين.

٢ـ تحقيق تقدم نسبي على صعيد تنشيط الزراعة والتجارة مما أدى إلى بداية أستقرار نسبي في أوضاع القبائل[٩].

٣ ـ الانتعاش الكبير للنزعات العنصرية والشعوبية والنحل الدينية والإتجاهات العقائدية المنحرفة، والتي كان من أخطرها الدعوات الإلحادية[١٠].

٤ ـ نمو واشتداد حركات المعارضة، ولا سيما المعارضة الشيعية العلوية، ضد الحكم العباسي بشكل مبكر، مما أدى إلى كثرة الثورات والحركات في العصر العباسي الأول[١١].

٥ ـ نمو وإتساع الإتجاه المؤيد لآل بيت الرسول داخل المجتمع الإسلامي، وهو الأمر الذي دفع العباسيين في بداية دعوتهم إلى تبني هذا الإتجاه من جهة، وإلى توجيه أعنف حملات القمع والإضطهاد ضده بعد تسلمهم الحكم من جهة أخرى، لشعورهم بخطر هذا الإتجاه وأصبحت مهيئة للانقضاض على هذه السلطة إبان إمامة الإمام الكاظم (ع)[١٢].

٦ ـ ممارسة الحكام العباسيين لأشد أساليب القمع والإضطهاد والسجون والقتل ضد الشيعة والعلويين من آل النبي (ص)، وهي الممارسة التي بلغت أحدى ذرواتها الأكثر عنفاً في عهد هارون الرشيد[١٣].

هذه السمات الرئيسية... وغيرها التي أتسم بها العصر العباسي الأول، كيف وإلى أي مدى أثرت في الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) وفي ممارسته لتأدية دوره الرسالي في ذلك العصر كإمام معصوم؟

بعض معالم الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) وتعبيراتها

بم تجلت تجربة الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) وكيف يمكن تحديد معالمها وتعبيراتها ومظاهرها؟

أن نقطة الانطلاق في ذلك، هي الدراسة الكيفية التي ادى بها الإمام دوره وواجباته، عبر المواقف الدينية ـ السياسية التي اتخذها في حياته، وعبر أشكال جهاده وسلوكه وعمله، التي مثلت الممارسة العملية التي هدف منها الإمام الإضطلاع بدوره ومسؤوليته، وتغير الشروط العملية التي تمكنه من القيام بواجباته وإنجازاته على أكمل وجه.

أما واجبات الإمام المعصوم، التي تجمد دورها وتمثل هدف إمامته فهي، كما ينص عليها مبدأ الإمامة وكما نعتقد بها الشيعة الإمامية: حفظ الدين وحراسة الإسلام، حماية بيضة الإسلام، تحصين الثغور بالعدد، جهاد الكفار، تنفيذ الاحكام، إقامة الحدود، اختيار الإمناء والإكفاء وتقليد الولايات للثقات النصحاء، جباية أموال الفيء والصدقات والخراج وتقدير العطاء، ومشارفة الأمور العامة بنفسه[١٤] وهو مايعني الجهاد لاقامة حكومة إسلامية شرعية[١٥].

ولأن ظروف الواقع المعطاة للإمام الكاظم، وكما للأئمة الأخرين منذ إمامه علي بن أبي طالب (ع) ليست متيسرة بالشكل المطلوب الذي يسمح له بممارسة دوره والقيام بواجباته بشكل كامل فإن ذلك واجب عليه استنباط الأحكام والمواقف الشرعية الدينية السياسية، وتحديد أشكال الجهاد والعمل الحركي، للوصول إلى ذلك الهدف وتحقيقه أخذاً في الأعتبار ظروف الواقع المعطاة تحقيق ذلك الهدف.

ان الغنى في تجربة الحياة السياسية للإمام الكاظم (ع)، وكما في تجارب الأئمة الأخرين يتجلى في أن تحديد الإمام للمواقف السياسية الدينية، ولأشكال الجهاد والعمل الحركي لم يتم عفوياً أو نتيجة ردود فعل ضد استفزازات واضطهاد حكام الجور اللاشرعيين، ولابفعل عواطف إنسانية جياشه ولا يقسر ظروف الواقع المعطاة والإستخفاف بها وإنما يتم ذلك التحديد بوعي الإمام الكامل لدوره وتكليفه الشرعي ومراعاة المصلحة العليا للإسلام والمسلمين واستلهام تجربة الأئمة الأخرين، فضلاً عن تجربته الخاصة التي اختزنها خلال معاصرته لوالده الإمام الصادق (ع) وظروف إمامته.

وفي ضوء هذه المنطلقات والقواعد الأساسية التي استند إليها الإمام الكاظم لتأدية دوره والقيام بواجباته، كيف حدد مواقفه السياسية وأشكال جهاده وأزاء جور واستبداد الحكام العباسيين المعاصرين له وعدم شرعيتهم، وكذلك ازاء قمع واضطهاد هؤلاء الحكام للشيعة ولسائر العلويين بقسوة وعنف شديدين، ثم أزاء سياسة المهادنة التي كان يبديها أولئك الحكام أحياناً تجاه الإمام بالذات وتجاه الشيعة والعلويين بشكل عام. . وأخيراً أزاء القمع والإضطهاد والسجن الذي مورس ضد الإمام بالذات حيث قضى حياته مسجوناً في إحدى سجون الرشيد؟

بطبيعة الحال، ان المجال لا يتسع هنا لاستعراض كل مواقف الإمام السياسية وجهاده، لكن اختيار نماذج بارزة من تلك المواقف وذلك الجهاد، ربما تكفي لعكس صورة واضحة لمعالم التجربة السياسية في حياته وتبرز قيمتها ودلالاتها العظيمة.

لقد أشرنا في هذه الدراسة إلى أن بداية إمامة الإمام الكاظم (ع) قد دشنت بداية المرحلة الثالثة من المراحل الثلاثة لادوار الأئمة المعصومين في التاريخ الإسلامي، وهي المرحلة التي كانت إحدى سماتها الرئيسية، ان قيادة أهل البيت أصبحت على مستوى تسلم زمام الحكم وأن هذه المرحلة لم تحدد من قبل الأئمة بل حددها موقف الحكم المنحرف من الأئمة أنفسهم، وهذا يعني أن الحكم العباسي قد بادر للإنتقال إلى صراع حاد وكشوف، اختار هو ميدانه وأساليبه، ضد الإمام وشيعته وضد سائر العلويين، ومحاولته جرهم إلى ذلك الميدان.. فماذا كان موقف الإمام؟

لقد عاصر الإمام الكاظم حكم المنصور لمدة عشر سنوات قبل أن تؤول إليه الإمامة، التي كان منعقداً لواؤها إلى أبيه الإمام الصادق. وقد شهد الأمام الكاظم اندلاع ثورة محمد ذي النفس الزكية في المدينة وثورة إبراهيم بن عبد الله العلوي في البصرة سنة ١٥٣ هـ اللتين حظيتا بالرعاية السرية[١٦] دون العلنة من قبل الإمام الصادق (ع) لقد اختزن الإمام الكاظم هذا الموقف عن أبيه وأدرك دلالاته في أن لحظة الصراع العلني المكشوف مع الحكم العباسي لم تحن بعد، فظل يمارس مسؤلياته بعد أبيه بحذر وحكمة حتى وفاة المنصور[١٧].

ويتولى المهدي الحكم خلفاً لأبيه المنصور سنة ١٥٨ هـ واتباعه سياسة المهادنة مع الإمام والعلويين في بداية الأمر ثم اعتقاله للإمام الكاظم لفترة قصيرة وإطلاق سراحه[١٨] واصل الإمام من جهة موقف المهادنة العلنية مع هذا الحكم وموقف الرعاية السرية للمعارضة الشيعية العلوية.

أما موسى الهادي الذي تولى الحكم بوصيةٍ من أبيه المهدي سنة ١٥٩ هـ، فقد بدأ حكمه بتشديد حملة القمع والإرهاب والإضطهاد ضد العلويين، مما أدى إلى تململهم وأعلان الثورة على حكمه.

لم يشأ الإمام الكاظم (ع) التصادم العلني مع حكم الهادي، مفضلاً تقديم الدعم والرعاية السرية للمعارضة العلوية. لذلك عندما عقد الحسين بن علي حفيد الإمام الحسن (ع) العزم على الثورة ضد حكم الهادي سننة ١٥٩ هـ (في واقعة فخ) ودعه الإمام الكاظم بالقول (أنت مقتول فاحدّ الضراب فإن القوم فسّاق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشركاً، فالله وأنا إليه راجعون وعند الله أحتسبكم من عصبه[١٩].

ورغم عدم تصدر الإمام الكاظم (ع) المجابهة وإخفاء دعمه وتأييده لثورة الحسين في واقعة فخ[٢٠] فإن الهادي وجّه اتهاماً مباشراً إليه وأطلق تهديداته بقتله بقوله (والله ماخرج حسين إلا عن أمره ولا أتبع إلا محبته لأنه صاحب الوصية في أهل البيت قتلني الله أن أبقيت عليه[٢١].

ويبدو أن دعم الإمام الكاظم وتأييده شبه العلني لثورة فخ وقائدها الحسين إنما استند إلى

تقديره لضعف حكم الهادي وحماقته وطيشه وعجزه وبالتالي عن مواجهته بعدام علني مباشر، وهو الأمر الذي من بين ما يدلل عليه، سخرية الإمام من تهديدات الهادي عند ورودها إليه[٢٢].

وبعد وفاة الحاكم العباسي الهادي وتولى أخوه هارون الرشيد الحكم بدأت حقبة جديدة من تاريخ الصراع بين هذا الحكم وبين الإمام الكاظم (ع) وشيعته، وآل بيت الرسول (ص) وهي الحقبة التي اتسمت بمواصلة الرشيد بل وحتى تجاوزه لسياسة سلفه المنصور في معاداة الإمام وآل البيت وفي تشديد تسليطه سيف القمع والإرهاب والقتل ضدهم، حيث أعلن الرشيد صراحة (والله لاقتلنهم ـ أي العلويين ـ ولاقتلن شيعتهم[٢٣] وقد أعقب ذلك اتخاذه عدداً من الإجراءات المعادية منها إبعاد عدد كبير من قادة آل البيت والعلويين من بغداد إلى يثرب، وأمره بهدم مرقد الإمام الحسين (ع) ومدينة كربلاء وارتكاب مجازر دموية بالقتل الجماعي لعدد من العلويين[٢٤].

ماذا كان موقف الإمام الكاظم (ع) إزاء ذلك؟ بالرغم من رغبته الواضحة للاستمرار في موقفه السابق بوجه عام، فقد قدر كما بين وأن الضرورة باتت تقضي الانتقال بذلك الموقف خطوة جديدة يمكن وصفها بإنها، أقل سرية وأكثر علنية، لسياسة المهادنة والتودد التي كان يظهرها الرشيد، مناورة، تجاه الإمام (ع).

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح هنا هو: هل كانت هذه الخطوة الجديدة التي أقدم الامام على اتخاذها لتصعيد مواجهته ومقاومته لحكم الرشيد، تستبطن، تكثيف أدانة لاشرعية هذا الحكم والاستعداد والتهيؤ، في المقابل، لانتزاع هذا الحق من مغتصبيه وإعادته إلى أصحابه الشرعيين؟ أن تتبع مسار المواقف السياسية الدينية للإمام الكاظم (ع) منذ تولي الرشيد الحكم وحتى استشهاد الإمام في أحد سجونه، توضح ذلك.

لم تبدد محاولات الرشيد التودد للإمام مناورة، قناعته بأن الإمام هو أولى منه بالخلافة الإسلامية[٢٥] والإمام، كما لم تبدد هواجسه بسعي الإمام لانتزاع هذا المنصب إذا ماسنحت الظروف بذلك. ولعل تأكيد حاشية الرشيد ونزلاء القصر، على أن الإمام يُطالب بالخلافة ويكتب إلى سائر الأقطار والأمصار الاسلامية يدعوهم إلى نفسه ويحفزهم إلى الثورة ضد حكومته[٢٦] قد عزز تلك القناعات والهواجس، والتي إزدادت رسوخاً لديه عندما احتج الإمام (ع) على الرشيد بقوله أنه أولى بالنبي العظيم (ص) من جميع المسلمين فهو أحد أسباطه ووريثه وأنه أحق بالخلافة من غيره وذلك عندما إلتقيا عند مرقد النبي (ص) وقد دفع ذلك الرشيد إلى الأمر بإعتقال الإمام (ع) وزجه في السجن[٢٧].

ويستنبط جواب الإمام الكاظم على طلب الرشيد تعين حدود فدك المغصوبة ليرجعها إلى بني فاطمة (ع) فحددها برقعة الإسلام كله بقوله، هذه هي الحدود التي هي لنا وقد غصبت منّا[٢٨] ادانة لعدم شرعية الحكم العباسي وحق آل البيت والإمام الكاظم والإمامة والخلافة.

كما ويستنبط المعنى ذاته، إجابة الإمام الكاظم عندما دخل إلى دار الرشيد وسأله ما هذه الدار؟ بقوله (هذه دار الفاسقين) ثم أعقب ذلك بتلاوة الآية الكريمة ﴿**الذين بدلوا نعمة الله كفراً**

وأحادوا قومهم دار البوار﴾[٢٩].

كانت الترجمة العملية لخطوات الإمام الكاظم تصعيد مقاومته لحكم الرشيد ومحاصرته هي، إضافة لما تستنبطه مواقفه من معان ودلالات تحريمه التعاون مع هذا الحكم وجهازه الإداري، وهو الأمر الذي بدأ جلياً بمطالبته صفوان أحد أصحابه، بالإمتناع عن كراء جماله إلى الطاغية هارون الرشيد[٣٠] وتحذيرة كذلك لزياد بن أبي سلمة التلبس بأيّ وظيفة من وظائف حكومة الرشيد بقوله (يازياد، لأن أسقط من شاهق فانقطع قطعة قطعة أحب إلى من أن أتولى لهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم[٣١].

غير أن هذا التحريم والتحذير من العمل مع حكومة الرشيد، لم يجر التغاضي عنه إلا في بعض الحالات التي يستثنيها الإمام بالذات للمصلحة، من حالة عمل علي بن يقطين كوزير في حكومة هارون[٣٢].

وفضلاً عن ذلك، وتواصلاً مع موقفه في تصعيد مقاومته لحكم الرشيد وتحديه أرسل الإمام الكاظم برسالة إلى الرشيد من السجن عبر فيها عن سخطه البالغ عليه، وذكره فيها بعدم شرعيته وبمصيره، وقال فيها أنه لن ينقضي على يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم الرخاء حتى نمضي معاً إلى يوم ليس فيه انقضاء ولا يخسر فيه إلا المبطلون[٣٣].

في ضوء هذه المواقف السياسية ـ الدينية للإمام الكاظم وجهاده ضد السلطان اللاشرعي الجائر يطرح سؤال، حول ماإذا كان جهاد وعمل الإمام قد اتخذ طابعاً حركياً وتنظيمياً أم لا؟

الواقع، أن عصر الإمام الكاظم وظروف إمامته وجهاده، كانت تتطلب العمل الحركي وأعداد الكتلة الجماعية الصالحة من الأمة في إطار تنظيمي سري يمارس السرية والكتمان والتقية تبعاً لظروف العمل والجهاد. وإذا لم يكن الإمام تصدر المسؤولية المباشرة عن مثل هذا الإطار، فإن جهاده وسلوكه وممارساته تشير إلى رعايته لمثل تلك الأطر وتوجيهها.

لقد ورث الإمام الكاظم عن جده الإمام الباقر، الذي تولى الإمامة في ظل سيطرة الأمويين على الحكم، تجربة تنظيمية غنية لمواجهة حكام الجور اللاشرعيين[٣٤] وهي تجربة لابد أن يكون الإمام الكاظم قد استحضرها لمواجهة حكم هارون الرشيد حيث اصبحت الحاجة لذلك شاخصة أمامه ذلك لأن الثورة العباسية التي أثرت على حركات الشيعة لقّنت جميع الأحزاب الإسلامية درساً بليغاً فيه أن التحرك ينبغي أن يعتمد على الخطط الطويلة الآمد والواضحة الأهداف، وأن النشاط الدعوى ينبغي أن يكـثّف في المناطق النائية من مركز السلطة الرسمية لتبعد الشبهات عن رجالها[٣٥].

وبالفعل، فقد أسست الشيعة، في العصرين الأموي والعباسي احزاباً سرية شكلت خلايا ومنظمات يرأس كل منها (الداعي) قامت بالدعاية السرية وقاومت الحكومات اللاشرعية، واحتفظت بسنجلات تحتوي على أسماء الدعاة، وكان من بينها سجلات خاصة بأسماء الشيعة عند بعض أصحاب الآئمة، كما كانت هذه الأحزاب تلجأ أحياناً، إلى المناظرات والكتابة على

الجدران لاطلاع الناس على مواقفها، كما تلجأ إلى السرية والكتمان والتقية[٣٦].

مع ذلك، ومهما كانت أشكال علاقة الإمام الكاظم بالاحزاب الشيعية في عصره وموقفه منها، سواء كانت بالتوجيه والإشراف المباشر أو الرعاية والإرشاد، فإنه كان يقوم من جهة بتكليف جماعة من تلاميذه وأصحابه للقيام بدور وكلاء له في بعض المناطق الإسلامية وأرجع إليهم شيعته لأخذ الأحكام الدينية منهم، كما وكّلهم أيضاً في قبض الحقوق الشرعية، وأذن لهم بصرفها على مستحقيها. وفضلاً عن ذلك فإن بعض الأقاليم الإسلامية التي كانت تدين بالإمامة، تقوم بإرسال مبعوث خاص عنها إلى الإمام حينما كان في السجن فيزودون بالفتاوى والإجابات على رسائلهم كما كان يتصل بالإمام أيضاً في سجنه بالبصرة عدد من العلماء والرواية بطرق خفيفة وتستر شديد عن أعين السلطة[٣٧].

هذه الأشكال من العلاقات والاتصالات بين الإمام ووكلائه تلاميذه وأنصاره، وما كانت تؤديه من وظائف وأدوار ومنها ممارسة الإمام لدوره القيادي وهو في السجن تمثل ظاهرة تنظيمية شكلت الوجه الأخر لموافقه السياسية الدينية لمواجهة حكم هارون الرشيد الجائر.

هكذا يمكن أن نخلص من هذا العرض والتحليل لبعض المواقف السياسية ـ الدينية والجهادية الحركية للإمام الكاظم (ع) وإبراز بعض مظاهرها وتعبيراتها العملية، إلى تحديد المعالم الرئيسية للتجربة السياسية في حياته والتأمل بما تنطوي عليه من قيم ودلالات

الخلاصة

إذا كان الهدف المباشر لهذه الدراسة الموجزة، وهو الكشف عن المعالم الرئيسية للحياة السياسية للإمام الكاظم (ع) وتحديد مكانتها أولاً في حياته العامة، كإمام معصوم، تولى مسؤولية قيادة المسلمين في عصره، وتحديد مكانتها ثانياً بين التجارب السياسية للأئمة الأخرين بإعتبارها تمثل كلا واحدا متكاملاً لادوار الأئمة المتنوعة، فإن الهدف الثاني الذي يرتكز على الهدف الأول، هو المساهمة في أزالة الغموض والأرتباك، اللذين تتسم بهما كتابات بعض كتاب الأئمة (ع) واستنتاجاتهم حول إبعاد الإمام الكاظم (ع) وأئمة أخرين عن السياسة ونفي تطلعهم لإقامة حكم إسلامي شرعي يتبؤون هم موقع القيادة فيه[٣٨].

ان ما خلصت إليه هذه الدراسة هو ليس فقط نفي تلك الاستنتاجات وتصحيحها بالاستناد إلى ما يعنيه مبدأ الإمامة بالذات والدور الديني ـ السياسي الذي يؤديه الأمام وإنما نفي ذلك أيضاً الإستناد إلى معالم الحياة والمواقف السياسية والجهادية الحركية للإمام الكاظم (ع) والأئمة الأخرين، عبر وعي وأدراك ما تستبطنه وتنطوي عليه مظاهرها وتعبيراتها، وليس عبر النظر إليها من خارجها فحسب. ذلك أن ظروف الواقع الموضوعي المعطي للأئمة، بتنوعه وتعقيده وتبدلاته يفترض التصرف إزاءها، بمواقف وممارسات سياسية تجمع بين الحنكة السياسية ومهارة القيادة وبين المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، وهو الجمع الذي تمكن الإمام الكاظم (ع) من تحقيقه

مثلما تمكن الأئمة الأخرين (ع) عند توليتهم لمنصب الإمامة.

الهوامش

١ـ المظفر، الشيخ محمد رضا: عقائد الإمامية، دار الزهراء، بيروت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ الطبعة الخامسة، ص ١٠٨.

٢ ـ المصدر ذاته، ص ١٠٣.

٣ ـ الحراني، الشيخ أبو محمد الحسن: تحف العقول عن آل الرسول مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٤، ص ٣٢٣.

٤ ـ راجع مثلاً: الحسني، هاشم معروف، سيرة الأئمة الاثنى عشر ج٢، ص ٣٢٠ وص ٢٣٤.

٥ ـ المصدر، محمد باقر: أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف، دار التعارف، بيروت بدون تاريخ، ص ١٤ و ١٤١.

٦ـ المرجع ذاته، ص ١١٥ و١١٦.

٧ ـ المرجع ذاته، ص ١٤٢.

٨ ـ الدوري، عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي دار الطليعة، بيروت الطبعة الرابعة، ص ٥٣.

٩ ـ المرجع ذاته، ص ٦٠ و٦١.

١٠ ـ القرشي، باقر شريف: حياة الأمام موسى بن جعفر، مؤسسة الوفاء، بيروت الطبعة الثالثة، ج٢، ص ١١٠.

١١ ـ الدوري، مرجع سابق: ص ٥٧ و٥٨ و٥٩.

١٢ ـ الصدر، مرجع سابق: ص ٦٩ و٧٠، وأيضاً: الصفار، حسن: الثائر والسجن دراسة في حياة الإمام الكاظم (ع)، دار البصائر الطبعة الأولى، ص ٤٨.

١٣ ـ الأصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني ٥ ـ ٢٢٥، عن القرشي، مرجع سابق، ج٢ ص ٧٥، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ١٦١ وأيضاً: لجنة التأليف في دار التوحيد: الإمام الكاظم، دار التوحيد الرقم ٩، طهران الطبعة الأولى، ص ٧١ وص ٦٥.

١٤ ـ القرشي، مرجع سابق، ج١ ص١٠٧.

١٥ ـ الخميني، آية الله العظمى الإمام: الحكومة الإسلامية ولاية الفقيه، دار القدس، بيروت، ص ٣١ و٣٥ و٣٦ و٦٦.

١٦ ـ الصفار، مراجع سابق ص ٢٩ و٣٠.

١٧ ـ المرجع ذاته، ص ٣٢.

١٨ ـ القرشي، مرجع سابق ج١١ ص ٤٤٩.

١٩ ـ المرجع ذاته، ج١، ص ٤٦٨ و٤٦٩.

٢٠ ـ ومما يؤكد أهمية وشرعية هذه الثورة ودعم الإمام الكاظم (ع) لها تعبير الإمام الجواد (ع) عن ثنائه عليها بقوله (أنه لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ) أنظر: القرشي، مرجع سابق ج١ ص ٤٧٢ و٤٧٤.

٢١ ـ المرجع ذاته، ص٤٧٢.

٢٢ ـ عبر الإمام الكاظم عن سخريته من تهديدات الهادي وتبسمه وقوله بيتين من الشعر عندما طلب إليه بعض أصحاب الحيطة من تلك التهديدات، حيث تمثل بقول كعب بن مالك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب غلاب

وقوله أيضاً:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع

٢٣ ـ الاصفهاني، أبو الفرج، ٥ ـ ٢٢٥ نقلاً عن القرشي ج٢ ص ٧٥.

٢٤ ـ القرشي، مرجع سابق، ج٢، ص ٨٢ و٨٤ و٨٥ و٨٦.
٢٥ ـ المرجع ذاته، ج٢، ص ٤٤٤.
٢٦ ـ المرجع ذاته، ج٢، ص ٤٥٢.
٢٧ ـ المرجع ذاته، ج٢، ص ٤٥٦.
٢٨ ـ يقول الإمام الخميني، لقد عمل أهل البيت (ع) وبذلوا كل مافي وسعهم من أجل تشكيل حكومة اسلامية عادلة، فالرشيد حبس الإمام موسى بن جعفر والمأمون يجلب الإمام الرضا إلى مرو ليجعله تحت نظره مباشرة، وقد عرف الرشيد والمأمون أنه بني على يريدون أن يجرد هم من السلطة لتعود الخلافة الحقة إلى أصحابها الأكفاء انظر: الخميني، مرجع سابق، ص ٧٣.
٢٩ ـ القرشي، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٥٩ و٤٦٠.
٣٠ ـ القرشي، مرجع سابق، ج٢، ص ٧٢ و٧٣.
٣١ ـ الشيخ الأنصاري: المكاسب، باب الولاية من قبل الجائر، نقلاً عن القرشي مرجع سابق ج٢، ص ٧٤.
٣٢ ـ أنظر: القرشب، مرجع سابق، ج٢، الصفحات ٢٨٤ وما بعدها.
٣٣ ـ الحسني، هاشم معروف، مرجع سابق ج، ٣٣٨ وأنظر أيضاً القرشي، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٠٠.
٣٤ ـ حسن غالب: الظاهرة التنظيمية عند الإمام الباقر (ع) مقال في مجلة الجهاد الفصلية، تصدر عن المركز الإسلامي للابحاث السياسية، طهران العدد ١٨، الصفحات من ص ٨ ـ ص ٣١.
٣٥ ـ زكار: الدكتور سهيل: أخبار القرامطة في الإحساء ـ الشام ـ العراق ـ اليمن، دار حسان، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ص ٢٨ و٢٩.
٣٦ ـ القرشي، مرجع سابق، ج٢، ص ١٨٧ و١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ و١٩١، نقل المؤلف بعضها عن الرجال للنجاشي.
٣٧ ـ المرجع ذاته، ج١، ص ٣٤ وج٢ ٤٦٧ و٤٩٠ و٤٩٢، ٤٩٣.
٢٨ ـ على سبيل المثال، جاء في دائرة المعارف الإسلامية ج٤ ص ٤٧٣ و٤٧٤: (ان الإمام الصادق لم يكن له شأن مافي عالم السياسة ولكنه عرف بدرايته الواسعة بالحديث. وجاء في كتاب (سيرة الأئمة الأثني عشر (ع) للسيد هاشم معروف الحسني ج٢، ص ٢٣٤ مايلي (ومجمل القول أن الإمام الصادق (ع) قد انصرف عن الخلافة والسياسة.) وكذلك قول مشابه في ص ٢٣٠ وجاء في كتاب القرشي مايلي: (أن السلطات الحاكمة في عصور الأئمة كانت تؤمن بأن الأئمة لم يكن لهم أي أرب في الحكم) وكذلك (كان المنصور يعلم أن الإمام الصادق كان بمعزل عن الحركات السياسية في عصره ولم يكن يبغي الحكم والسلطان) وكذلك (كان هارون الرشيد يعلم أن الإمام موسى (ع) لم يكن يستهدف منازعته على سلطانه، أو البغي عليه، إذا لم تكن عند الإمام قوى يعتمد عليها في منازعته والخروج عليه؟ راجع القرشي، سابق، ج١، ص ٢٢.